

قراءة في الأسس الكلامية لبناء الفكر النحوي

A reading of the verbal foundations for building grammatical thought

حسينة يخلف (طالبة دكتوراه)¹، عمار شلواي²¹ جامعة بسكرة – الجزائر (مخبر اللسانيات واللغة العربية) Yakhelef.hassina@univ-biskra.dz² جامعة بسكرة – الجزائر. a.chelouai@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2021/07/01 تاريخ القبول: 2021/10/16 تاريخ النشر: 2021/12/20

ملخص:

لقد نشأ النحو العربي في مناخ إسلامي، وهذا المناخ جمع بين عدة علوم أهمها: علم الكلام وعلم النحو، وكان بين هذين العلمين أخذ وعطاء؛ وتدخّل هذه الدراسة في إطار الكشف عن أصول الفكر النحوي، وبيان أهم الأسس التي بنى عليها النحاة هذا الفكر، فالهدف منها: بيان أثر علم الكلم في النحو العربي. حيث اتضح من خلالها أن العلاقة بين علم النحو وعلم الكلام علاقة وطيدة نتيجة وحدة المنبع؛ أي القرآن الكريم، كما أن التأثيرات الكلامية ظهرت في فترة مبكرة، وأن من أهم الأسس الكلامية التي بنى عليها النحاة فكرهم: الأصل والفرع، الوجود والعدم، التأثير والتأثر.

كلمات مفتاحية: الفكر النحوي؛ علم الكلام؛ الأسس الكلامية؛ القاعدة؛ التقعيد.

Abstract:

Arabic grammar originated in an Islamic climate, and this climate combined several sciences, the most important of which are: theology and grammar, and between these two sciences there was a give and take, and this study falls within the framework of revealing the origins of the grammatical thought, and clarifying the most important foundations upon which the grammarians built this thought, and the aim of it was: to reveal the impact of theology on Arabic grammar. Through which it was shown that the relationship between grammar and theology is a close relationship as a result of the unity of the source, the Holy Qur'an, and that the verbal influences appeared in an early period, and that among the most important verbal foundations on which the grammarians built their thought: the origin and the branch, existence and non-existence, influence and influence.

Keywords: grammatical thought, speech science, verbal foundations, the rule. Retrieval.

المؤلف المرسل: حسينة يخلف، Yakhelef.hassina@univ-biskra.dz

1. مقدمة:

لقد ترك لنا النحاة تراثاً فكرياً يكشف عن مدى تفاعل العلوم العربية، وتأثر بعضها ببعض نتيجة وحدة المنبع؛ أي القرآن الكريم الذي يمثل أعلى مراتب الإعجاز؛ فلأجله ظهرت العلوم خاصة اللغوية منها، وتأثر بعضها ببعض، وأهم هذه العلوم علم الكلام وعلم النحو؛ الذي يحتاج إلى وسيلة لإنتاجه، والمتمثلة في الفكر النحوي الذي بني على عدة أسس، ومنطلقات منهجية .
فما هي الأسس الكلامية التي بنى عليها النحاة فكرهم؟ هذه الإشكالية تتفرع إلى عدة تساؤلات هي:

ما أثر علم الكلام في النحو العربي؟ وما هي العوامل التي ساعدت على تقبل الأثر الكلامي؟
وما مستويات التداخل بين علم الكلام والفكر النحوي؟ وما أهم التقسيمات النحوية ذات الأسس الكلامية؟

هذه الأسئلة وغيرها حاولنا الإجابة عنها في هذه الدراسة التي كان هدفها كشف أثر علم الكلام في النحو العربي، وبيان أهم الأسس التي بنى عليها النحاة فكرهم متخذين في ذلك المنهجين التاريخي، والوصفي سبيلاً لبيان ذلك .

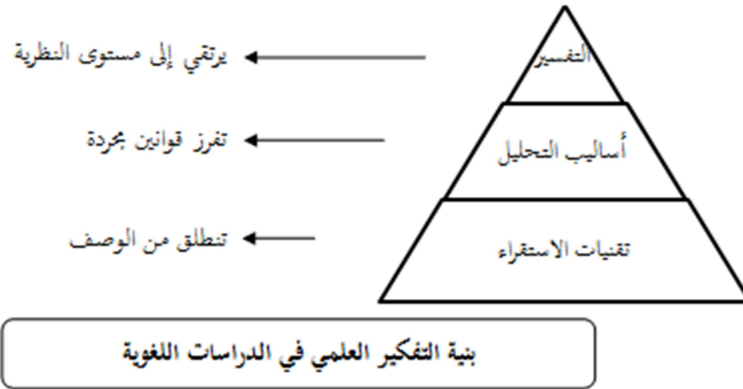
2. نشأة النحو العربي والمناخ الإسلامي

كان لنزول القرآن أثر كبير في نشوء الدراسات اللغوية، ومن أهمها علم النحو « فالنحو العربي نشأ وتطور في مناخ إسلامي، وأنه ظل يتنفس جوه حتى استوت له وسائله ومناهجه» (الراجحي، 1979م، صفحة 12)؛ حيث يعزو كثير من الباحثين نشأة النحو العربي إلى شيوع اللحن بين المسلمين من العرب وغير العرب، وذلك أمر لا ريب فيه ولكن في رأي الدكتور كريم حسين ناصح الخالدي السبب الأهم في التفكير بوضع النحو أثر القرآن الكريم في تحفيز المسلمين على استجلاء النص القرآني «لأن وضع أحكام نحوية ودلالية كان ضرورة تلح على أولي الأمر، والفقهاء وتعجل في ظهورها، وهذا السبب أهم مما قيل عن شيوع اللحن؛ وذلك لأن سن الأحكام النحوية واستنباطها من النص القرآني أكثر إلحاحاً من قضية شيوع اللحن؛ لأن سن القوانين ووضع الأحكام التشريعية قضية لا تحتل التأجيل» (الخالدي، الفكر النحوي العربي بين فهم النص القرآني و تأثير سلطة العقل، 2016، صفحة 28)، حيث كان «النص القرآني يدرس ويحلل وتفكك مكوناته وتستنبط من حالاتها القاعدة النحوية، وهذا الفهم لنشأة النحو يختلف عن فهم عدد من الباحثين لطبيعة نشأة النحو بذهابهم إلى أنه قواعد تصاغ من استقراء كلام

العرب ويؤتى لها بشواهد من القرآن الكريم». (الخالدي، الفكر النحوي العربي بين فهم النص القرآني و تأثير سلطة العقل، 2016، صفحة 210)

3. النحو العربي والتفكير العلمي:

إن المتبوع للتفكير النحوي يلاحظ توافقا بينه وبين التفكير العلمي نتيجة الطرائق المتبعة والوسائل المعتمدة؛ فالنحو العربي «ظهر بعد أن اجتمعت المقدمات الضرورية لظهوره وجعلت من ضرورة تععيد اللغة العربية مشكلة تستدعي الحل العلمي الناجح. فحدد النحاة الأوائل المشكلة، واستخدموا تقنية العينة الأولية ثم العينة الموسعة في استقراء علمي مدروس للنصوص التي تصلح لاستخلاص القواعد والقوانين، وتنظيمها في ظل درجة عالية من الموضوعية العلمية، ظهرت في نزاهتهم العلمية، وسعة معرفتهم وتنويعهم لأساليب اختبار المادة المستقراة حتى اطمأنوا إلى نتائج تحليلهم، وأهدوا للأمة علم النحو بشقيه القاعدة والتعقيد» (الملخ، التفكير العلمي في النحو العربي الاستقراء، التحليل، التفسير، 2002م، صفحة 13)، فالمنهجية المتبعة عند النحاة الأوائل منهجية علمية، لذلك عد التفكير النحوي تفكيراً علمياً. «فبنية التفكير العلمي الهرمية في الدراسات اللغوية المختلفة تنطلق من الوصف ثم تقرر قوانين مجردة ثم ترتقي إلى مستوى النظرية، والتوصل إلى النظرية الهدف الأساس للعلم» (الملخ، التفكير العلمي في النحو العربي الاستقراء، التحليل، التفسير، 2002م، صفحة 20)، ويمكن التمثيل لبنية التفكير العلمي الهرمية في الدراسات اللغوية بالمخطط التالي: (الملخ، التفكير العلمي في النحو العربي الاستقراء، التحليل، التفسير، 2002م، صفحة 21)



حيث حاول نحاة العربية إدراك سر هذه اللغة الشريفة في أساليبها وتراكيبها وانتظامها وفق مستويات من التفكير يمكن تمثلها بالنظر في ذلكم النتاج في أنواع ثلاثة: (الخطيب، دت، صفحة 32)

1.3 التفكير الجزئي المحسوس:

وهو مستوى تقرير الأحكام والقواعد المستنبطة من استقراء كلام العرب.

2.3 التفكير الكلي المحسوس:

وهو مستوى القياس على تلك الأحكام من خلال نظام من التفسيرات والتعليقات.

3.3 التفكير الكلي العقلي:

وهو مستوى التعميم والتجريد ويأتي هذا المستوى من التفكير بغية التناسق بين النوعين السابقين للكشف عن منطق خفي ينتظم نحو العربية.

4. مفهوم الفكر النحوي:

1.4 تعريف الفكر النحوي:

يرتبط الفكر النحوي بما هو حسي وبما هو عقلي، وإذا ما قارنا بين الفكر والتصور نجد أن «الفكر هو ناتج تفاعلات التصورات العقلية والتصورات هي أساس عمل العقل ووجوده، وحين يعجز العقل عن تصور قضية فإنه يرفضها، أو يحاول تجنبها» (مكروم، 1999، صفحة 47)، وقد عرفه الدكتور أبو المكارم بقوله: «الخطوط الرئيسية العامة التي سار عليها البحث النحوي والتي أثرت في إنتاج النحاة وفكرهم على السواء» (أبو المكارم، 2007، صفحة 3) أي الأسس والمنطلقات المنهجية وأضاف محمد عبد الفتاح الخطيب تعريفا مفصلا بقوله: «ذلكم النتاج الذي استخرجته عقول النحاة العرب من خلال التفكير في اللغة، وتعمق النظر فيها، والوقوف على طريق العرب في لسانها، ومعهود خطابها وفق أسس ومنطلقات منهجية بنوا عليها ذلكم الفكر ويمثله في الحضارة العربية الإسلامية تراث ضخم من القواعد والضوابط والتفاسير والتعليقات التي حاول بها نحاة العربية إدراك سر هذه اللغة الشريفة في أساليبها وتراكيبها وانتظامها» (الخطيب، دت، صفحة 32)، من خلال هذا القول يتبين أن للفكر النحوي جوهر يختلف عما عداه.

2.4 جوهر الفكر النحوي:

إن جوهر الفكر النحوي يتمثل في « فهم النص القرآني ومعرفة أسرار نظمته وطرائق بنائه وسبل الوصول إلى مقاصده، وهذا ما ينبغي أن يدرس الفكر النحوي في ضوءه لأن الرؤية الأخرى التي قصرت

بحثها على التفكير في الصناعة النحوية وأوغلت في البحث في تفكير النحويين في الأصول والعلل والعامل والتأويل وغيره من الموضوعات، هذه الرؤية مستمدة من تفكير النحويين المتأخرين تفكير تعليمي ممتزج بالمؤشرات الفلسفية والأصولية والمنطق الأرسطي» (الخالدي، الفكر النحوي العربي بين فهم النص القرآني وتأثير سلطة العقل، 2016، صفحة 17).

3.4 الفرق بين الفكر النحوي والنحو:

أو ما يمكن أن نسميه بالفرق بين القاعدة والتععيد. فالفكر النحوي (التععيد): وسيلة إنتاج القاعدة ومنهج دراستها وتفسيرها وهو بهذا الجزء المتغير من النحو. أما النحو (القاعدة) فهي ثابتة إذ تستند إلى وصف الواقع الثابت من الاستعمال اللغوي الصحيح الذي ارتضاه العرب وعلماء الأمة العربية في عصر الاستقرار والاحتجاج (الملخ، التفكير العلمي في النحو العربي الاستقراء، التحليل، التفسير، 2002م، الصفحات 13-14) وتمكن من أخذ بها من «انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقيق والتكسير والإضافة والنسب والتركيب... وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها، وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها» (ابن جني، 2015، صفحة 103) ومما يتصل بمصطلح الفكر النحوي مصطلح أصول النحو فما الفرق بينهما؟

4.4 الفكر النحوي وأصول النحو:

يعد مصطلح أصول النحو ميدانا يتجاوز التفكير في اللغة إلى البحث عن مؤسساتها الكلية، ومعالجة فلسفة النحاة في التعليل والتععيد والتأصيل فأصول النحو يراد بها منهج الفكر النحوي ومنطقه الذي صدر عنه في بناء نظريته (الخطيب، دت، الصفحات 35-36) وقد أشار "ابن جني" إلى ذلك بقوله في كتاب الخصائص: «ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجر والجزم، لأن هذا أمر قد فرغ في أكثر الكتب المصنفة فيه منه، وإنما هذا الكتاب مبني على إنارة معادن المعاني وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في الأنحاء والحواشي» (ابن جني، 2015، صفحة 33)، فأصول النحو بهذا المفهوم يمثل «عاصما للنحاة من الخطأ في التععيد إذ لا بد لصياغة الفكرة عن الوقوع في الخطأ لدى تعرضه لحقائق أي علم من العلوم» (الخطيب، دت، صفحة 37) فبهذا المفهوم لا يمكن للفكر النحوي الاستغناء عن أصول النحو.

5.4 مميزات الفكر النحوي:

- إن أهم ما يميز الفكر النحوي ما يلي:
- أصالة الفكر النحوي منذ بدء ولادته.
- تداخل العلوم الإسلامية المؤثرة في ثقافة المفكر المسلم، فلم يعرف المفكرون والمسلمون التخصص، واستقلالية الاختصاص فيما يكتبون فيه ويصنفون.
- وحدة المنبع الفكري لعلوم العلماء والمفكرين؛ أي القرآن الكريم (الخالدي، الفكر النحوي العربي بين فهم النص القرآني و تأثير سلطة العقل، 2016، صفحة 69) لتعدد وجوه دراسته، ومرد ذلك إلى أن غاية المسلم هي فهم القرآن الكريم واستيعاب مضامينه وأحكامه وتشريعاته. (الخالدي، الفكر النحوي العربي بين فهم النص القرآني و تأثير سلطة العقل، 2016، صفحة 70)

5. مفهوم علم الكلام:

لقد لاحظ واضعو علم النحو أن عددا من أفكار علم الكلام ومصطلحاته يمكن الاستفادة منها في الدرس النحوي؛ فأخذوا منها ما يعينهم على بناء الفكر النحوي، وقبل التطرق إلى أثر علم الكلام لا بد من تعريف علم الكلام وتحديد موضوعه ومنهجه لتتضح العلاقة بينه وبين علم النحو .

1.5 تعريف علم الكلام: قدم علماء الكلام ومؤرخوه مجموعة من التعريفات ، ونشير أن

« آراء الفرق التي بدأت مبكرة في النصف الثاني من القرن الأول الهجري واستمرت لعدة قرون كثيرة كانت هي الحصيلة التي تكوّن منها علم الكلام، ومن هنا يمكن القول بأنّه قد تراكمت نشأة الفرق مع نشأة علم الكلام» (فرغل، 2007، صفحة 31) وقبل التفصيل في نشأة علم الكلام لا بد من تعريفه ولعل أشهر تعريف للفارابي(339هـ) والذي يذهب إلى أن «علم الكلام هو صناعة وهو ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرّة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقوال» (الفارابي، 1968، الصفحات 131-132) كما يذهب ابن خلدون إلى أن علم الكلام: «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد» (بن خلدون، 2006، صفحة 339).

فقد حددّ موضوع هذا العلم «حينما قال العقائد الإيمانية والمقصود هنا بالعقائد الإيمانية الأحكام والمبادئ والقضايا التي أتى بها القرآن ولا دخل للعقل في إيجادها أي إن موضوع هذا العلم النص القرآني المطروح على العقل البشري» (عون، 2014، صفحة 46)

كما جمعت الدكتورة رجاء أحمد في كتابها علم الكلام عدة تسميات لعلم الكلام، يمكن تلخيصها في ما يلي: (علي ر.، 2012، الصفحات 15-16)

التسمية	سببها
1-علم أصول الدين	لأن مسائله هي أساس الدين وأصوله
2-الفقه الأكبر	لتمييز مباحث الفقه العملية والتي تسمى الفقه الأصغر فكلاهما علم أصول إلا أن علم الكلام يؤسس النظر بينما الفقه يؤسس العمل.
3-علم التوحيد والصفات	لأنه يضع التوحيد عقيدة أساسية تستخرج منها باقي العقائد فالتوحيد أهم موضوعاته.
4-علم التطور والاستدلال	وذلك لاعتماده على الاستدلال العقلي بجانب الاستدلال النقلي.
5-علم العقائد الإسلامية	يضع العقائد مرتبة بمعنى أنه يرتبها ترتيباً منطقيًا.

2.5 مباحث علم الكلام:

إن المتأمل في كتب علم الكلام يجد أن مباحثه مستمدة من الكتاب والسنة «فما من مسألة من المسائل الكلامية إلا ونجد لها أصلاً في السنة كما وجدنا لها أصلاً في القرآن (السيد، دت، صفحة 40)

وقد أشار أبوحيان التوحيدي إلى مدار البحث في علم الكلام حيث كان في عصره حول الذات والصفات؛ أي التوحيد، وكذلك موضوع العدل، وغيره من الموضوعات التي تنقسم إلى:

دقيق الكلام

كالكلام في الطبيعيات والأنطولوجيا
والمعرفة وغير ذلك من موضوعات يرجع
فيها إلى العقل وكان العقل أداة البحث
(التوحيدي، 2009، صفحة 192)

جليل الكلام

وهو ما يرجع إلى كتاب الله كالكلام في الذات
والصفات والسمعيات عامة.

ويؤكد الجرجاني في التعريفات على نفس هذه الموضوعات فيقول: «الكلام علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام، والقيود الأخير لإخراج العلم الإلهي للفلاسفة» (الجرجاني، 2005، صفحة 130) حيث أخرج الجرجاني العقلية من مباحث علم الكلام، إلا أننا نجد من المحدثين من أدخلها في علم الكلام حيث صنف رجاء أحمد علي في كتابها علم الكلام موضوعات أو مباحث علم الكلام إلى صنفين هما: (علي ر.، 2012، الصفحات 89-90)

2-السمعيات	1-العقليات
لا يستطيع العقل البرهنة عليها وتمثل في: -النبوة. -الإيمان. -العمل. -الميعاد. -الإمامة.	يستطيع العقل أن يبرهن عليها، وهي أشياء يقينية وهي: -الذات والصفات. -العدل الإلهي. -الحرية الإنسانية. -خلق الأفعال.

ولقد ذكر فيصل بدير عون أن علم الكلام تميز بموضوعات البحث في أصول الدين، وهي كلها في نظره مسائل أصولية أوجزها فيما يلي:

- الإيمان بوجود الله.
 - الإيمان بأن العالم حادث موحدة وليس قديما.
 - الإيمان بوجود كائنات روحية.
 - الإيمان بالوحي الإلهي.
 - الإيمان بالرسول.
 - الإيمان بالبعث.
 - الإيمان بالقدر. (عون، 2014، صفحة 56)
- ورأيه يتفق مع رأي أبوحيان التوحيدي، وهي تمثل جليل الكلام إذ لا بد من الرجوع إلى كتاب الله فيها.

3.5 منهج علم الكلام:

يختلف منهج البحث في علم الكلام باختلاف وجهات نظر علمائه ومدارسه التي تعرف بالفرق الكلامية، حيث إن للمذاهب الإسلامية الكلامية خمسة مناهج معتمدة في البحث والدراسة وهي ممثلة في الجدول التالي: (الفضيلي، 1993، صفحة 28)

أسسه	المنهج
وتتمثل في الاعتماد على: - إجماع الأمة. - إجماع الصحابة. - سيرة الصحابة. - إجماع السلف، وهم مسلمو القرن الأول الهجري. - الخبر المتواتر.	المنهج النقلی
وتتمثل في الاعتماد على: - الضرورة العقلية (بداهة العقول). - سيرة العقلاء. - البديهيات العقلية (المنطقية) وهي استحالة الدور، واستحالة التسلسل، واستحالة اجتماع وارتفاع النقيضين. - المبادئ الفلسفية المسلم بها مثل: مبدأ العلية، ومبدأ القسمة إلى الواجب والممكن والممتنع، وهو منهج المعتزلة ومن تأثر بهم.	المنهج العقلي
ويتمثل في الاعتماد على: - الجمع بين العقل والنقل؛ لأنه لا تعارض بينهما - آيات القرآن يفسر بعضها بعضاً، ويقرن بعضها بعض - جواز التأويل عند وجود ما يقتضيه، وهو منهج الأمامية والأشاعرة، ومن سار في هديهما.	المنهج التكاملي
ويتمثل في اعتماده على سلوك الطرق المؤدية إلى تصفية	المنهج الوجداني

الباطن، واستكمال الظاهر بغية الفناء في الوصول إلى مرحلة الحب الإلهي، وهو منهج الصوفية.	
وهو منهج تكاملي أيضاً يتمثل في الاعتماد على الجمع بين العقل والنقل والوجدان فيأخذ من كل بطرف في حدود ما يتوصل به إلى مستوى المعرفة المطلوبة، وهو منهج الإسماعيلية (الفضيلي، 1993، صفحة 29)	المنهج العرفاني

إن كل هذه المناهج تعتمد عدة استراتيجيات أو طرق قد تتفق وقد تختلف «فالمتكلم لا يبدع ليمتع، وإنما ينظر ليلزم أو على الأقل ليُقنع سيشهد على هذا الأمر النظر إلى أي مصنف من مصنفات علم الكلام.... إذ لا يعقل أن يعتمد المتكلم إلى إلزام غيره أو إقناعه بأمر لم يتقدم له تبينه، والاستدلال له، وللتبيين والاستدلال الكلاميين وجوه متعددة ومتميزة منها: الاستقراء، والتمثيل، والاستدلال بالشاهد على الغائب وقياس الأولى، وقياس الأدنى، وقياس المساواة، والقياس التحليلي، والقياس الشرطي المتصل، والقياس الشرطي المنفصل بأنواعه المختلفة، والرد على المحال والبرهان بالخلف، وبالرغم من تعدد هذه الوجوه وتمايزها فإن لها (نواة مشتركة) تشكل أساساً لها نواة وجه الاستدلال بالنص، النص القرآني أساساً فلا كلام بغياب هذا الوجه سواء أكان الكلام كلام أهل المنقول أم كان كلام أهل المعقول» (النقاري، بيروت، لبنان، صفحة 53)

4.5 الفرق الكلامية: كانت الإمامة سبباً أساسياً في ظهور فرق مختلفة، ومن أهم هذه الفرق فرقة المعتزلة والأشاعرة، ولكل فرقة مناهج وخصائص مختلفة .

* **المعتزلة:** تعد من أكبر وأقدم الفرق الإسلامية فهي «لم تلتزم طريق الجماعة، ولم تأخذ مأخذ السلف، ولم يرض أتباعهم أن يأخذوا بظاهر الكتاب والسنة، بل جعلوا للعقل سلطاناً مع سلطان الشريعة بل لقد جعلوا في بعض الأحيان العقل قيماً على الشريعة؛ ومع ذلك نقول إنهم لم ينكروا النقل ولكنهم لا يترددون في أن يخضعوه لحكم العقل ويقررون أن الفكر قبل السمع»، وللمعتزلة خمسة أصول أو مبادئ يلتفون حولها وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». (علي ر.، 2012، الصفحات 31-32)

* **الأشاعرة:** من أهم الفرق الكلامية ساعدت في إثراء الفكر الإسلامي فلقد «نشأت المدرسة الأشعرية في أوائل القرن الرابع الهجري، وساعدت في إثراء الفكر الإسلامي وتوجيهه، فضلاً عن أن محاولاتها متكررة لإعادة بنائه وتطوير مناهجه بما يتلاءم مع روح الإسلام الخالص، ومنهجهم يعتمد على

الكتاب والسنة أولاً، كذلك يعتمد على المآثور اعتماداً كبيراً فيذهبون إلى أن الاتباع خير من الابتداء « (علي ر.، 2012، صفحة 45)

ونشير إلى أن فرقة المعتزلة ذات أثر واضح في الفكر النحوي حيث كانت آراء المعتزلة ومنطلقاتهم في النظر إلى الكون والمخلوقات كافة، والقوانين التي تسيّر الكون، والحالات التي تعترى المخلوقات في بحثهم عن الأدلة التي تثبت وحدانية الخالق قد أوصلتهم إلى النظر فيما يسمونه الجوهر وما تعتريه من أعراض متمثلة بالأفعال والصفات، وهي آراء حركت الفكر النحوي فاتجه إلى دراسة موضوعات نحوية مهمة ترتبط ارتباطاً قوياً بالبحوث الاعتزالية (الخالدي، الفكر النحوي العربي بين فهم النص القرآني و تأثير سلطة العقل، 2016، صفحة 13) وسنكشف فيما يلي عن جوانب هذا الأثر.

6 الأثر الكلامي في النحو العربي:

1.6 بداية التأثير الكلامي في النحو العربي

إن صلة النحو أوثق ما تكون بعلمي الكلام والأصول، أي إن هذه العلوم الثلاثة كانت أكثر العلوم تبادلاً للتأثر والتأثير وقد ظهرت التأثيرات الكلامية في النحو في فترة مبكرة (الراجحي، 1979م، صفحة 16) عند سيبويه فهو يقول مثلاً: «واعلم أن الشيء يوصف بالشيء الذي هو هو، وهو من اسمه، وذلك قولك: هذا زيد الطويل ويكون هو هو وليس من اسمه كقولك هذا زيد ذاهباً، ويوصف بالشيء الذي ليس به ولا من اسمه كقولك هذا درهم وزنا، لا يكون إلا نصبا» (سيبويه، 1977، صفحة 276) ونشير هنا إلى مذهب المعتزلة في أن الصفات عين الذات.

2.6 أهم العوامل التي ساعدت على تقبل الأثر الكلامي

هناك عدة عوامل أدت إلى تقبل الأثر الكلامي منها:

- إن علم الكلام من أهم العلوم الإسلامية وأكثرها تأثيراً في غيره؛ نظراً لأن موضوعه العقائد الدينية التي هي أساس للأحكام الشرعية والعلوم الدينية، ومن ثم كثر استخدام العلماء من كل فن لاصطلاحات المتكلمين ومسائلهم على النحو ما نرى في مصطلحات الواجب، والجائز، والمستحيل، والعدل، والوجود، والنفي، والإثبات...، فهذه الاصطلاحات صارت عرفاً عاماً لدى الأصوليين، والفقهاء، والمفسرين، والبلاغيين، والنحويين، وغيرهم.
- إن كثيراً من النحاة كانوا من المشتغلين بعلم الكلام . (بخيت، 2012، صفحة 28)
- إن المنهج الذي اصطنعه النحاة في دراسة النحو يتسم بسمتين أساسيتين:

أولاً: إنه منهج تفسيري بمعنى أنه لا يقف عند حد وصف الظاهرة اللغوية، وهذا المنهج يحتاج إلى مجموعة من الركائز الثقافية والأصول العقلية، وقد كان من بين هذه الركائز الثقافية التي اعتمد عليها نخبة علم الكلام.

ثانياً: إنه منهج تعليمي في أكثره وهذا المنهج يتحرك في إطار ثقافة العصر الذي يعيش فيه، ويرتبط في الوقت نفسه بحاجات المتعلمين وخلفياتهم الثقافية، وبهذا وجدنا المصنفات النحوية وبخاصة كتب الحواشي مملوءة بمباحث كلامية ومنطقية وأخرى أدبية وتاريخية، ولاشك أن هذه المباحث في أكثرها خارجة عن حدود المادة النحوية. (الخالدي، الفكر النحوي العربي بين فهم النص القرآني و تأثير سلطة العقل، 2016، الصفحات 31-32).

وفي كلا المنهجين يتطلب من النحوي أن يكون على دراية بعلم الكلام وما يتعلق به.

3.6 مستويات التداخل بين علم الكلام والفكر النحوي

يتجلى هذا الترابط والتداخل في مستويين (السيف، 2008، صفحة 63):

1- الجانب النظري والتعديدي: وذلك بظهور الأثر العقدي الكلامي في كثير من جوانب الفكر النحوي ويتجلى ذلك في مستويين: مستوى الشكل والأسلوب، ومستوى المضمون والأفكار أيضاً.

على مستوى المضمون: ← الأصول النحوية: أنواع الأدلة كالسمع والقياس.
← الأسس العامة التي وجهت التفكير النحوي كالتعليل والعمل.

على مستوى الشكل: ← المصطلحات النحوية المتأثرة بالمصطلحات الكلامية
← لغة التأليف النحوي (بجيت، 2012، صفحة 473)

2- الجانب التطبيقي والتحليلي للنصوص الشرعية: والمتمثل بالتوجيه الإعرابي وبيان وجه الدلالة فيها.

5.6 التقسيمات النحوية ذات الأسس الكلامية

المقصود بالتقسيمات النحوية ذات الأسس الكلامية تلك التقسيمات التي روعي فيها محاذاة الألفاظ على العالم الخارجي، وكان أساس التقسيم فيها عقلياً أو كلامياً، ومن هذه التقسيمات:

- التقسيم إلى أصل وفرع: مثال ذلك اعتبار الاسم هو الأصل، والفعل هو الفرع؛ وهذا يتجاوب بوضوح مع تفرقة المتكلمين بين الذات والفعل، واعتبار الذات أصلاً والفعل فرعاً .
 - تقسيم الألفاظ بحسب التأثير والتأثر: لقد جعل النحاة الرفع الذي هو أقوى الحركات للفاعل الذي هو أقوى الأقسام .
 - تقسيم الألفاظ باعتبار الوجود والعدم: حيث قسمت الألفاظ إلى واجب، وحائز، وممتنع .
 - تقسيم الكلام بحسب أقسام الموجودات: فالكلمة عند النحاة ثلاثة أقسام: اسم، وفعل، وحرف، فالألفاظ إنما هي نائبة عن الأشياء ومعبرة عنها.
 - تقسيم الفعل بحسب أقسام الزمان الحقيقي: اعتمد النحاة في تقسيمهم لأنواع الفعل إلى ماض ومضارع وأمر على أساس كلامي هو مشابهة الكلام للأزمنة الفلكية، وهذه المشابهة تتمثل في أمرين : الأول: أن الزمان من مقومات الفعل؛ يوجد عند وجوده، وينعدم عند عدمه. الثاني: أن في كل منهما معنى الحركة والتجدد؛ فالزمان حركة الأفلاك، والفعل حركة الأشخاص والأشياء .
 - تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز: استخدم النحاة فكرة تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز في دراستهم للتأنيث؛ فمن ذلك تقسيم الأسماء المؤنثة إلى مؤنث حقيقي كفاطمة، ومؤنث مجازي كالشمس، والإضافة، ومعاني بعض الحروف . (بحيث، 2012، الصفحات 395-411)
 - كما كان لعلم الكلام أثر في العلة النحوية، ويتجلى ذلك في القواعد الكلامية التي اعتمدت في التعليل النحوي، والتي أثرت في دراسة العلة.
- 6.6 أهم القواعد الكلامية التي أثرت في دراسة العلة والتعليل عند النحاة**
- تتمثل أهم هذه القواعد في:
- إن كل حادثة ممكنة الوجود، وإن كل ماهية ممكنة بذاتها لا توجد ما لم يجب وجودها وقد طبقها ابن جني في بحثه عن العلل الموجبة والمجوزة.
 - المعلول الواحد يستحيل أن يجتمع فيه علتان مستقلتان.
 - الشيء لا يكون علة لنفسه، وبهذا يبطل التسلسل في النحو والكلام. (بحيث، 2012، صفحة 255)

- الفرق بين العلة والسبب، أن العلة موجبة لمعلولها على وجه الضرورة، أما السبب فهو يؤدي إلى الحكم بلا وجوب، وهذا النوع الأخير من السببية شبيه ما نجده لدى علماء المنهج التجريبي من حديث عن السببية والتجريبية.

- العلة النحوية حسية بمعنى أنها مبنية على الإدراك الحسي لأنها تجرى مجرى التخفيف، كتعليل قلب الواو ياء في نحو "ميزان" لثقل الواو الساكنة بعد الكسرة وغير ذلك. (بخيت، 2012، صفحة 256)

7.6 الفرق بين العلة النحوية والعلل الكلامية

الحاصل أن وجه الاتفاق بين العلة النحوية والعلل الكلامية يكمن في الاعتماد على الحس وهذا الممكن أيضا هو وجه الفرق بينهما وبين العلة الفقهية (بخيت، 2012، صفحة 254)، ولعل ذلك ما يقصده ابن جني إذ يقول: «اعلم أن علل النحويين وأعني بذلك حذاقهم، لا ألفافهم المستضعفين أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقيين، وذلك أنهم يحيلون إلى الحس ويحتجون فيه بثقل الحال، أو خفتها على النفس، وليس كذلك علل الفقه؛ لأنها إنما هي أعلام وأمارات لوقوع الأحكام ووجوه الحكمة فيها خفية عنا» (ابن جني، 2015، صفحة 49).

فابن جني يضع ثلاثة مستويات للعلل تختلف باختلاف نصيب كل منها من القطعية والظنية وهي: (بخيت، 2012، صفحة 253):

- علة كلامية وهي ضرورة قطعية.

- علة نحوية وهي حسية أقرب إلى الضرورة.

- علة فقهية وهي ظنية احتمالية.

7 الخاتمة:

مما تقدم يتبين أن العلاقة بين علم الكلام وعلم النحو علاقة وطيدة نتيجة وحدة المنبع؛ أي القرآن الكريم، وتجلت معاملها في الأسس التي بنا عليها النحاة فكرهم، حيث توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى عدة نتائج هي:

- احتياج المنهج الذي اصطنعه النحاة إلى مجموعة من الركائز الثقافية، والأصول العقلية، ومن بين أهم هذه الركائز الثقافية التي اعتمد عليها النحاة علم الكلام.
- التأثيرات الكلامية في النحو ظهرت في فترة مبكرة.

- إن من أهم العوامل التي ساعدت على تقبل الأثر الكلامي أن كثيرا من النحاة كانوا من المشتغلين بعلم الكلام.
- أثر علم الكلام في النحو تجلّى في جانبين: الجانب النظري التقعيدي ويضم مستويين مستوى المضمون والمتمثل في الأصول النحوية، والأسس العامة التي وجهت التفكير النحوي كالتعليل، والعامل، ومستوى الشكل ويضم المصطلحات النحوية ولغة التأليف.
- إن هناك عدة تقسيمات نحوية بنيت على أسس كلامية منها: التقسيم إلى أصل وفرع، تقسيم الألفاظ باعتبار الوجود والعدم، تقسيم الفعل بحسب أقسام الزمان الحقيقي، تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز.
- إن هناك عدة قواعد كلامية أثرت في دراسة العلة والتعليل عند النحاة منها: أن كل حادثة ممكنة الوجود، الشيء لا يكون علة لنفسه، المعلول الواحد يستحيل أن يجتمع فيه علتان مستقلتان.

8. قائمة المصادر والمراجع:

- 1 أبو الفتح عثمان ابن جني. (2015). الخصائص (الإصدار 1، المجلد 1). (تح: محمد علي النجار) المكتبة التوفيقية.
- 2 أبو حيان التوحيدي. (2009). ثمرات العلوم (الإصدار دط). (شرح وتحقيق وتعليق: انور محمود زناتي، ومحمد غالب بركات، المحرر) دمشق، سوريا: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.
- 3 الشريف الجرجاني. (2005). كتاب التعريفات (الإصدار ط1). بيروت، لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- 4 الفارابي. (1968). إحصاء علوم الدين (الإصدار 3). (تح: عثمان امين) مطبعة السعادة.
- 5 حسن خميس الملخ. (2002م). التفكير العلمي في النحو العربي الاستقراء، التحليل، التفسير (الإصدار1). الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- 6 حمّال النقاري. (بيروت، لبنان). المنطق في الثقافة الإسلامية (الإصدار 1). 2013: درا الكتاب الجديد.
- 7 رجاء احمد علي. (2012). علم الكلام (الإصدار 1). عمان، الاردن: دار المسيرة للنشر والتوزيع.
- 8 رجاء أحمد علي. (2012). علم الكلام (الإصدار 1). عمان، الاردن: دار المسيرة للنشر والتوزيع.
- 9 سيبويه. (1977). الكتاب (الإصدار 2، المجلد 1). (تح: عبد السلام هارون) القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- 10 عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. (2006). مقدمة بن خلدون (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار صادر.
- 11 عبد الهادي الفضيلي. (1993). خلاصة علم الكلام (الإصدار 2). بيروت، لبنان: دار المؤرخ العربي.
- 12 عبده الراجحي. (1979م). النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج (الإصدار دط). بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- 13 علي أبوالمكارم. (2007). أصول التفكير النحوي (الإصدار 1). دار غريب: القاهرة.
- 14 فيصل بدير عون. (2014). علم الكلام ومدارسه (الإصدار 3). القاهرة: مكتبة الأنجلوالمصرية.
- 15 كريم حسين ناصح الخالدي. (2016). الفكر النحوي العربي بين فهم النص القرآني وتأثير سلطة العقل (الإصدار 1). عمان، الاردن: الرضوان للنشر والتوزيع.
- 16 كريم حسين ناصح الخالدي. (2016). الفكر النحوي العربي بين فهم النص القرآني وتأثير سلطة العقل (الإصدار 1). عمان، الاردن: الرضوان للنشر والتوزيع.
- 17 محمد صالح محمد السيد. (دت). مدخل الى علم الكلام (الإصدار دط). القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر.
- 18 محمد عبد الفتاح الخطيب. (دت). ظوابط الفكر النحوي (دراسة تحليلية للأسس الكلية التي بنى عليها النحاه آراءهم) (الإصدار مج 1، المجلد 1). القاهرة: دار البصائر للنشر والتوزيع.
- 19 محمد عبد الله بن حمد السيف. (2008). الأثر العقدي في تعدد التوجه الاعرابي لآيات القرآن الكريم جمعا ودراسة (الإصدار 1، المجلد 1). الرياض: دار التدمرية.
- 20 مصطفى أحمد عبد العليم بجيت. (2012). أثر العقيدة وعلم الكلام في النحو العربي (الإصدار 1). القاهرة، مصر: دار البصائر للنشر والتوزيع.
- 21 هاني عبد الرحمن مكروم. (1999). التصور العقلي (الإصدار 1). القاهرة: مكتبة وهبة.
- 22 يحي هاشم حسن فرغل. (2007). تجديد المنهج في العقيدة الاسلامية (الإصدار 1). القاهرة: دار الافاق العربية.